محاضرة: رواية التسعينيات في المغرب العربي، رواية الأزمة في الجزائر أنموذجا

تعريف أدب الأزمة في الجزائر:

قبل الحديث عن أدب الأزمة يجدر بنا التطرق لمفهوم الأزمة، وعليه نجد ما ورد في لسان العرب لابن منظور عن ذلك ما يلي : (الأَزْمُ: شدة العَضِّ بالفم كله. الأنياب هي الأوازم وَالأَزْمُ: القطع بالناب والسكين وغيرهما. أَزَمَ إذا عَضَّ، والمصدر هو: الوَزْمَةُ الأزمة(.وفي حديث مجاهد أنَّ قريشاً أصابتهم أزمة وكان أبو طالب ذا عيال .)...ويقال: أَزَمَ عليهم الدهر والعام: يَأْزَمُ، أَزْمًا وأُزُومًا: اشتد قحطه وقيل: اشتد وقلَّ خيره، والسنة أَزْمَةٌ وأَزَمَةٌ وأُزُومٌ. آزمة والأزمة: السنة المجدبة .والأزمة هي: الشدة والقحط)[i] .

كلمة الأزمة تعني الشدة في الأمور، وهنا هي الشدة التي عاشتها الجزائر وشعبها ومرت بما يقارب العشرية، سنوات سوداء من الموت والدمار والقتل والاغتصاب سنوات عانى الشعب الجزائري ويلات الإرهاب الذين انعدمت الإنسانية فيهم وقست قلوبهم وماتت ضمائرهم فاخذوا يقترفون الجرائم باسم الدين يشرعون أفعالهم بفتاوى تبيح لهم اقتراف المنكرات في حق الصغار والكبار النساء والرجال...

لقد ولدت هذه المرحلة، مرحلة العشرية السوداء – التي تعد مرحلة تحول في الكتابة الأدبية ولا سيما الروائية منها– كتابة روائية تساير المرحلة التي عصفت بالجزائر وشعبها، وما دامت الرواية هي الجنس الأدبي الأكثر قدرة على التعبير عن الواقع، ظهر هذا الموضوع مسيطرا على المتن الروائي الجزائري مرحلة التسعينيات،

وظهرت مجموعة من الكتاب وأغلبهم من الشباب تعبر عن هذا الواقع المعيش بكل تناقضاته ومآسي و بما تملكه من إمكانات أدبية وقد وسَمت هذه الكتابة الروائية الجديدة بسمات المرحلة ذاتها، فالأديب واحد من هؤلاء وطبيعي أن يتأثر بما يعيشه فالظلم طاله هو أيضا.

ويقول في ذلك **بشير مفتي** وهو من كتاب هذه المرحلة: (تفاعل الأدب الجزائري مع عشرية الأزمة الأمنية الوطنية والحرب الأهلية، وكتبت المئات من الروايات باللغة الفرنسية والعربية، غلب عليها في تلك اللحظة الطابع الاستعجالي والتسرّع، وكذلك طغيان الرؤية الإيديولوجية والأسلوب المباشر، أي تلك الكتابة التي تقف مع طرف دون طرف آخر، فنجد من يوالي السلطة كتب روايات تدين الإسلاميين الإرهابيين، مثل: رشيد بوجدرة، واسيني الأعرج، رشيد ميموني، بوعالم صنصال... إلخ، وتدافع عن الجيش الذي أوقف المسار الانتخابي، ولم يترك التجربة تذهب إلى أبعد حد .ومن كان يرفض توقيف المسار الانتخابي عام 1992م عندما فازت به الجبهة الإسلامية للإنقاذ بأغلبية ساحقة، كتب ضد السلطة العسكرية، مثل: الطاهر وطار، أحميدة العياشي، سليمة غزالي... الخ")[ii].

إشكالية أدب الأزمة:

لقد تعددت التسمية التي أطلقت على الأدب الذي أنتجته هذه المرحلة، مرحلة العشرية السوداء، من قبل الباحثين الجزائريين، وأطلق على كتابات هذه المرحلة عدة مصطلحات منها: "رواية الأزمة الوطنية ، رواية التسعينيات، رواية المحنة، الأدب الإستعجالي، رواية العشرية السوداء، رواية العنف، رواية الشباب، رواية ثورة العنف، الرواية التسجيلية الجديدة... وهو الأمر الذي خلق إشكالية المصطلح مما استعصى

على الدارسين القبض على مفهوم واحد، فغياب المصطلح الموحد الذي يتفق حوله الأدباء جعل الباحث يعيش حالة فوضى المصطلح وقلقه، ومن أبرز المصطلحات التي أفرزت إشكالية واضحة، نجد مصطلح الأدب الاستعجالي، وسمي بهذا (في تبرير واضح للطابع الارتجالي الذي كتبت به وللضعف الفني الذي اتسمت به، مما جعل منها روايات هزيلة أشبه ما تكون بالتقارير الصحفية)[iii]، تتسم بالضعف وعدم النضج.

إن الأدب الاستعجالي (هو المفهوم الذي رددته الأوساط الفرانكوفونية في مقارباتها النقدية ومعالجاتها الصحفية، بينما انفردت المقاربات العربية للظاهرة في الملتقيات والكتابات الصحفية خصوصا بإطلاق مفهوم " كتابة المحنة...)[iv].

ويرفض "**الطاهر وطار**" مصطلح الأدب الاستعجالي بقول: (إنني لا أعترف بمصطلح الاستعجال في الأدب، وإذ لم نكن نقصد بالاستعجال التهافت من أجل الظهور والبروز رغم حداثة التجربة والموهبة)

فرغم الأحكام النقدية الموجهة للروايات على أنها كتابات استعجالية وركزت على المضمون دون البناء، الأمر الذي جعلها تسقط في فخ البنية الخارجية، وأهملت الجانب الإبداعي الذي من شأنه أن يجعل من النص نصا جماليا يعج بالدلالة. إلا أنه يمكن أن نتكلم عن هذا الإنتاج الغزير ونقول: إنه أدب عبر عن مرحلة عاشتها الجزائر وبأدوات مختلفة وبرزت نصوص على قدر من الإبداع، سجلت حضورها وبقوة مضمونا وبناء.

سنحاول استنطاق واقع الأزمة الوطنية في الجزائر ومدى تفاعلها مع نص "بيت من جماجم".للروائية المبدعة شهرزاد زاغز:

مفارقة العنوان:

يعد العنوان عنصرا من العناصر التي تسهم في فهم النصوص، فهو (إظهار لخفي ووسم للمادة المكتوبة،إنه توسيم وإظهار، فالكتاب يخفي محتواه، ولا يفصح عنه، ثم يأتي العنوان ليظهر أسرا ره، ويكشف العناصر الخفية أو الظاهرة بشكل مختزل وموجز)[v]، إنه يلعب دورا رئيسا في بناء الدلالة وإنتاجها.

إن قراءتنا لأغلب المتون الروائية لهذه الفترة نجدها تتميز بشعرية طافحة بالمأساة، وهي عناوين تجذب القارئ وتمنح النص جاذبية تجعل القارئ يقبل عليها،

إن قراءة المتن الرّوائي تمكننا من معرفة الدلالات التي كانت تقصدها الكاتبة من خلال العنوان، وعنوان الرواية "**بيت من جماجم**"، المتكون من المبتدأ لفظة "بيت" والخبر "**من جماجم**" المتكون من الجار والمجرور، عنوان ينزاح عن معناه المألوف الذي يعني الدفء والأمان والاستقرار كيف وهو (كوننا الأول)[vi] الذي ننشأ فيه ونترعرع فـ(الحياة تبدأ بداية جيدة، تبدأ مسيجة محمية دافئة في صدر البيت)[vii] ، ليستحيل رمزا للموت ويعبر عن فجائعية، فالعنوان يقوم على مفارقة عجيبة وفاجعة يقترن فيها الأمان والراحة والسكينة التي يحملها البيت بالموت واللاحياة والفناء، واللاأمل في الحياة المقترن بالجمجمة، فالعنوان يمثل جزءا هاما من الراهن الذي يحيل إلى الكارثة،

إنّ تشكيل العنوان في هذا النّص لم يكن اعتباطيا بل يرتبط بالمتن الذي يحكي عن العشرية السوداء والجرائم التي اقترفتها الجماعات المسلحة في حق المجتمع، فيوميا مئات القتلى والجرحى...

صورة الغلاف:

يعد البحث في صورة الغلاف مجالا خصبا في الدراسات السيميائية، وهي تعد فاتحة نصية واستباق لأحداث الرواية.

وصورة الغلاف كانت وبلا شك علامة إشارية دالة على المتن الروائي، وقد زادت في وضوح الفكرة وتعميقها لدى المتلقي،

إن الصورة الغلاف والمتمثلة في رأس إنسان يشبه الجمجمة لنحوله وجحوظ العينين، تطغى على الغلاف كله وتسيطر عليه، وإذا ما حاولنا ربطها بالعنوان لا نجدها جمجمة بالمعنى الحقيقي للجمجمة التي هي عبارة عن هيكل عظمي يمثل الرأس، وهذا حدود ما تقوله هذه العلامات في صورتها التقريرية، لكن هذه الجمجمة كأنها رأس شبح جاحظ العينين وفمه مفتوح وله أذنان بارزتان وكبيرتان.

إن لوحة الغلاف، ما هي إلا علامات إشارية تشع دلالات، فهي تجعل القارئ يربط الظاهر بالباطن، و ينتقل بوساطتها من المعاني المباشرة التقريرية إلى المعاني الإيحائية، فصورة الغلاف تبعث الخوف والجو الجنائزي الذي يخيم على النص السردي وهي ترتبط بالمتن بشكل أو بآخر وتوحي بفحوى الرواية، وفى بعض الأحيان تكون اختزالاً له، وهو تأويل يؤكده النص.

وقد تكون الصورة هنا صورة لضحايا يملؤهم الرعب والخوف ويسيطر عليهم الهلع. وهي كعلامة بصرية دلالة على الرؤوس المقطوعة التي لا يزال الهلع يسكنها ويكسوها البياض من شدة الخوف فعلامات الخوف ظهرت في جحوظ العينين والصراخ دلالة على الخوف الذي اعتراها قبل أن تلفظ آخر أنفاسها فبترت عن الجسد، وبقيت على الصورة الأولى حالة الخوف من جلادها وهي ترى السكين ينحر رقبتها دون رحمة ولا شفقة،

إن الجثث تتناثر في كل مكان، تحصي البطلة حميدة العديد من الجماجم: (أصارع آلاف الصور المرعبة لعشرات الرؤوس المقطوعة. إنني أعدها الآن، الجمجمة رقم1 لأجمل قتيل في تل اعمارة،

الجمجمة رقم2 لامرأة الشمس.

الجمجمة رقم 3له

الجمجمة رقم4 لها.

الجمجمة رقم5 لكَ.

الجمجمة رقم 6 لكِ

.....رقم7؟

.....رقم8؟

.....رقم9؟

.....رقم1000: لي..لي..)[viii].

فغياب الأمن بهذا البيت الذي يرتبط بأفعال الإرهاب صورة مباشرة ترتبط باستلاب الروح واستلاب الجسد.

الفضاء الفجائعي:

اتخذ الروائية شهرزاد زاغز، من الأمكنة كلها بدون أسماء محددة فضاء يطغى عليه العنف، إن الفضاء الذي تدور فيه أحداث الرواية هو فضاء جنائزي بكل الأمكنة التي تلفه وتدور في فلكه بشهادة الشخصيات، فلم يعد ذلك المكان الذي يبعث على الراحة والهدوء والسكينة والأمان غدت كل الأمكنة كئيبة يخيم عليها الرعب ويسكنها الموت، فضاء من العتمة والدمار، فالوطن كله فوضى، تقول حيدة في كآبة تامة: (لقد تحول كل شيء من حولي إلى أشياء مرعبة.. الأشجار، المنازل، السيارات، لافتات الإشهار المعلقة..)[ix]

الجثث والأشلاء تملأ الأمكنة، ورائحة الموت تلف كل الفضاء لقد عبثت يد الإرهاب بالمكان الذي أصبحت تحدده حواس أخرى كالشم فراحة الجثث هي الفاعل في إبراز المكان بواسطة حاسة الشم، فهي الصفة الطاغية على المكان (رائحة الموت تنبعث من جميع الأمكنة)[x].

فضاء النص فضاء مأساوي أزهقت فيه الأرواح وشوّهت الأجساد (الجثث، رائحتها تملأ الجو.. إنني أتنفس هذا الجو الدبق منذ أن أحصيت معهم أول فجيعة...هذه الجثث المتطايرة أشلاء متفحمة فوق أعمدة الكهرباء، وعلى الجدران، والأبواب، والنوافذ، وفوق زجاج السيارات.. هذه العين مرشوقة على غصن شجرة، وهذه الرجل التي تتدلى من أعلى ساعة الساحة العمومية...)[xi].

جاء الفضاء الرّوائي في "بيت من جماجم" فضاءً مأساويا يملأه العنف (تطلعت إلى أول الشارع.. كانت حركة الناس غير عادية، ضجيج وصراخ، هروب في جميع الاتجاهات كأنه يوم الحشر.. الناس هذا دأبهم كلما انفجرت قارورة غاز معدة خصيصا للانفجار، حدث هذا منذ أيام، ويحدث اليوم، وسيحدث غدا، الجثث،رائحتها تملأ الجو.. إنني أتنفس هذا الجو الدبق منذ أن أحصيت معهم أول فجيعة...)[xii].

الموت يخيم على الفضاء يجسه هذا المقطع السردي في شكل محاورة تجريها الساردة مع نفسها وتصفها بالمحاورة السخيفة وهي تتصفح الجرائد:

(–مكانش الوطن؟

–إنه في المطبعة..

–والشعب؟؟

– لن يجيء في الموعد؟؟

–والحرية"؟

–تطرق أبواب الشوارع

علها تصل بعد لحظات

–و"الصباح"؟

–لم يستيقظ اليوم من غفوته.

–و"مساء الجزائر"؟

–نسي التثاؤب على برج الريح.

فعاد إليه كي لا يضيع.

–والحقيقة"؟

–واقعة تحت ضائقة مالية تشتكي وقعها المر على النفوس

–و" النصر"؟

–عائد مع أول هزيمة.

على جبهة القتال.

–و"المجاهد"؟

–يكسر حجرة الملح

ليعيد ما تبقى في قاعها من موارد

–و"الجمهوري"؟–سقطت في لعبة التفرج على الجسور، فتمرد الجند عليها.

–و" "؟)[xiii].

عنف اللغة :

هناك بعض الخصائص التي ميزت روايات التسعينيات، فمادامت تكتب عن مرحلة تتسم بالعنف بكل أنواعه وأبعاده فلا محالة أن تتّسم به على مستوى اللّفظ والتركيب والأسلوب، فقد اتسمت لغتها بسمات الراهن المأساوي فطغى عليها العنف والدموية فهي لا تخرج عن حقل الموت، نجد الموت والعنف مادة غذت النص التسعيني.

إن روايات التسعينيات جاءت لغتها عنيفة تواكب العنف الإرهابي، فهي لغة ناجمة عن عنف المرحلة بكل أشكالها ذبح، اغتصاب، حرق، تفجير، تهويل وتخويف، كيف للأديب أن يكتب عن أزمة دون أن يتناول تلك الانتهاكات في حق الإنسانية، فهي لغة تنحرف عن الكلام العادي إلى لغة مرحلة حددها الإرهاب بدمويته بحسب "رومان جاكبسون" فكتاب هذه المرحلة استخدموا لغة غير مألوفة.

استطاعت رواية الأزمة أن تجد لنفسها لغة خاصة بها، لغة فرضتها المرحلة مترجمة للعنف الدموي الذي فرضته المرحلة لغة ألفاضها: الموت صليل السيوف، عواء الذئاب، الدم، الانفجار، الصراخ، الجثث، الأشلاء... لغة عنيفة تناسب المشاهد الإجرامية.

في أكثر من موضع تطغى اللغة العنيفة على السرد فاستحالت لغة الرواية عنفا من خلال ألفاظها، على نحو ما نجد في المقطع الآتي(كل يوم سقوط قتلى، اعتقالات، سرقة، انتهاك أعراض فتيات. حرق الحافلات.. أصبح الخروج من البلدة صعبا..)[xiv].

فإذا ما تأملنا هذه المقاطع أحصينا عددا من مفردات العنف منها : القتلى، الاعتقال، السرقة، النهب، الاغتصاب، الحرق...

كان موضوع العنف أو الإرهاب مدار معظم الأعمال الرّوائيّة التسعينيّة بألفاظ تنتمي لمعجم القتل والموت وهي تعبر عن الواقع بلغته .

---

[i]– ابن منظور: لسان العرب، مج 1، مادة (أزم)، دار صادر، بيروت، ط3، 2004، ص57.

[ii]– بشير مفتي: سيرة طائر الليل نصوص، شهادات، أسئلة، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013، 90، 91.

[iii]– أحمد منور: ملامح أدبية، دراسات في الرواية الجزائرية، دار الساحل ، الجزائر، 2008، ص 162.

[iv]–عبد الله شطاح: مدارات الرعب، "فضاء العنف في رواية العشرية السوداء"، مطبعة ألف للاتصال والإشهار، الجزائر،2014، ص 141.

[v]– محمد بازي : العنوان في الثقافة العربية، التشكيل ومسالك التأويل، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، دار الأمان، الرباط، منشورات الاختلاف، ط1، 2012، ص 11.

[vi]– غاستون باشلار: جماليات المكان، تر/ غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 1984، ص 78.

[vii]– المرجع نفسه، ص 79.

[viii]– شهر زاد زاغز: بيت من جماجم، منشورات التبيين، الجاحظية، الجزائر، 2000، ص 24،25.

[ix]– الرواية، ص 9.

[x]– الرواية، 16.

[xi]– الرواية، ص 15.

[xii]– الرواية، ص 15.

[xiii]– الرواية،31 ،32.

[xiv]– الرواية، ص31.